



العاصمة مجلة

المجلد الرابع، ٢٠١٢ م

ISSN : 840-2277-9914



قسم العربية، كلية الجامعة
ثرونتبرم - ٦٩٥٠٣٤، كيرالا، الهند

لماذا نهمل عرض لوحات الخير والجمال...؟

محمد سعيد باه

أستاذ الفكر الإسلامي في الجامعة السنغالية، السنغال

يلحظ من يتتبع سير الإسلام عبر المعمورة وتغلغه في تضاعيف الأمم أن سيره كان قد تباطأ وتقلصت سرعة اكتساحه لدوائر جديدة خلاف ما كان عليه الأمر في تلك الأعصر الذهبية التي نزحت فيها أمم وشعوب حين دهمتها قوى الضلال - مشرقاً ومغرباً - للاحتماء داخل السياج الإسلامي الذي ظل يتسع قروناً متطاولة حتى بعد فترة طويلة من انتهاء حقبة "الأفواج" التي بشر بها القرآن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عشية اختتام رسالته إلى أهل الأرض.

فحين الفحص عن العلل الكامنة وراء هذا القصور الشانن الذي أورث انحساراً في بعض جوانب المد المبارك، الذي لو تنامى بوتيرته الطبيعية لكانت سفينة الحضارة البشرية قد اتخذت وجهة مغايرة عما عليه الوضع اليوم، لا يبعد أن يكون التقصير في مجال الأداء الفني وترتيب مكونات المعارضات التي نقدمها للبشرية من المعوقات الأشد تأثيراً، لأنه من العوج أن نخصص مساحة شاسعة لبعض الجوانب من السيرة النبوية مثل الغزوات التي كان يكفي عرضها واستخلاص الدروس منها في بضع صفحات ثم يمتد حبل الحديث عن الجوانب الأخرى التي لا تزال في حاجة إلى تسليط مزيد من الأضواء باعتبارها مدار البعثة المحمدية، وهذا الجنوح يلاحظ في الإصرار على تقارير فقهية صارمة تعرقل مسيرة الحياة بعد فكها عن اللمسات الحانية التي يضعها القرآن بعد كل تنزيل لتتشرع مجمل للحياة.

ومما ألهب في الحماس لتناول رؤانا وآلياتنا لممارسة مهمة البلاغ، قصة متداولة في الشبكة (لا أعلم درجة تماسكها عند التمهيص، لكن الدلالة الكامنة فيها مهمة)، وردتني عبر البريد الإلكتروني منذ فترة أرويهما لكم ثم أتجاوز ما فيها من طرافة في غاية السماجة إلى ما هو أجدى بمحاولة استجلاء ما تحتزنه من دلالات على اختلال في المفاهيم لدى الكثير ممن يتصدرون في ميدان البلاغ وهم أعجز عن أن يتلقوا الرسالة المخزنة في نصوص الإسلام وبالتالي يقرونها بصورة غير مقلوبة: "قال أحدهما، وكانا يجتهدان ما أسعفهما ما كانا يملكان من زاد دعوي، مع ترجيحي بأنه غير صالح البتة للتسويق في المعارض الحضارية، لإقناع رجل أوروبي بالدخول في دين الله:

إذا دخلت في الإسلام يجب أن تختتن!

ثم أردف صاحبه مكملاً الشروط التعجيزية القاسية: أما إذا خرجت فستقتل بموجب حد الردة!

فما كان من الزبون، الذي فوجئ بهذه الطريقة المستهجنة في عرض حقائق دين بحجم الإسلام على رجل فار من جحيم البعد عن الله وطفق يبحث عن ركن شديد يأوي إليه، إلا أن صاح فزعاً: ما هذا الدين الذي إذا دخلت جزوا... وإذا خرجت جندلوا...؟!".

السؤال الذي سارعت إلى طرحه على نفسي، بعد قراءة القصة الحزينة: لماذا نفترض أصلاً بأن شخصاً ما سيختار الخروج من ظلال الإسلام الفيحاء للعودة إلى تلك الصحارى الجرداء بعد أن يكون قد تذوق حلاوة العيش في هذه الواحة المطمئنة؟

ألا يعني ذلك إصاق تهمة مسبقة، ولو بصيغة مبطنة، بهذا الدين والزعم بأنه خلو من كل عوامل الجذب والتحبیب والمثيرات الجالبة للأنس والألفة، بما يجعل الناس ما أن يدلفوا إلى دائرة الإيمان به حتى يهرعوا يتلمسون باب الخروج من النفق المظلم الذي تسللوا إليه خطأ؟

وأذكر بأنني قرأت منذ فترة استفتاء (طلب فتيا) وجهه بعض الشباب المسلم، ممن يعيشون في إحدى البلدان الغربية، إلى أحد العلماء يسألونه ما إذا كان يجوز لهم أن يأكلوا أموال غير المسلمين بالباطل على شاكلة عدم دفع التذاكر في وسائل المواصلات العامة والتهرب من سداد ما عليهم من بعض الرسوم المستحقة وما شابه ذلك من المنكرات.

هنا خلل تربوي خطير يجب الاعتناء به لأن بقاءه يعني التساوي مع النمط الغربي المتبع هناك في إعداد المواطن الصالح الذي يأتي من رمي منديل ورقي مستهلك إلا في مكانه المخصص له وإلا دسه في جيبه انتظارا، لكن هذا المواطن الصالح الذي يتجنب تشويه رونق شوارع قريته هو الذي يسمح له ضميره الحساس بارتكاب الموبقات مجرد أن يعبر حدود بلده إلى درجة أنه يتكسب من وراء رمي أطنان من المواد السامة التي تستمر آثارها المدمرة مآت السنين، حين يدفنها وسط مساكن دولة ابتلي سكانه بحكام من السفلة والأغبياء. مما أذهلني في هذا الدين، وهو من الدلائل الدامغة على أنه من عند الله، هذه النبوة الخاصة التي يخاطب بها كل فرد إما قرعا على وتر حساس ينفرد به كي ينفعل ويسرع الخطا نحو الاستجابة أو إطلاق هتاف يستجيب لأشواقه ثم ينجذب، وقد لمست هذه الحقيقة في تنوع أبواب كسب الخير حيث يجد كل فرد نوعية الغذاء الذي الروحي الذي يصلح له، وهو ما يفسر تفاوت إقبال الناس على هذا الباب أو تزامهم على ذلك من أبواب كسب الخير، ولذا فحين تضيق أبواب الوصول إلى رحاب الله فنختزلها في عدد من الطاعات سنضع بذلك جمهور الناس خارج دائرة الرحمة الربانية؛ وهنا نكون ظلمنا الواقفين خارج الباب وجنينا على أنفسنا بتحجير وسيع رحمة الله على منهج من حاول احتكار عطاء الله لنفسه وللرسول (صلى الله عليه وسلم) وحدهما.

وأثناء قراءاتي لما يستجد في الفكر والثقافة لدى غيرنا من الأمم، وبالأخص فيما يتعلق بشق البحث عن بدائل للحماقات التي قادت إليها اجتهادات أرضية صادمة حطمت ما في الكائن البشري من خير وصلاح وصاغت منه عنصرا ممزوج الشعور متبلد العاطفة يعيش على حافة الهاوية يمسى ويصبح على قلق الخوف من التردى في تلك الهوة السحيقة التي لا قرار لها، لمست مدى إهمالنا عرض حقائق الإسلام البسيطة التي كانت وتظل تمثل مفاتيح العقول وجواذب القلوب ما يجعل الناس يندفعون نحو أنوار دين الفطرة إلى درجة القفز فوق الحواجز العاليات ليرتموا في أحضان أناس تفوح منهم الطيبة ويعبق الحنان حواليتهم، على شاكلة: "أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز". (١)

جاء هذا الدين إلى البشر، لا ليضيق عليهم الخناق ويسد عليهم منافذ الحياة - كما قر في روع من وهموا عن حقائق الإسلام الكبرى وطفقوا يبدلون كلام الله - وإنما ليأخذ بأيديهم برفق ويربت على ظهورهم بحنان ليعبر بهم دروب الحياة مجنبا إياهم المزالق ويدربهم على طرق جني ما بث الله في كونه من أطيب وما طمر في حناياه من منافع، ويسوق الناس نحو هذه المرباع المخصبة برفع هتاف الخير والجمال المحبب إلى كل نفس سوية كي ينعطفوا نحونا. من جمال الإسلام الذي نستطيع به التسلل إلى القلوب والعقول لمنات الملايين من البشر، ذلك الجو الهادي الذي يبسطه بين بني البشر كي يكون التعايش محببا والتدابير مستهجننا، ويتطلب بسط هذا الجو اعتصار أفضل ما في كل فرد من الحب والحنان ثم دفعه إلى أن يبث ذلك على من حوله دونما انتظار لعائد متوقع أو مكسب مرجو، ولرسم هذا المسار المفضي إلى قيام اجتماع متناسق يأوي إليه الفرد وقد استكمل عناصر العيش الكريم (أمننا داخل السرب، عافية في جسد، ضمانا لقوت يوم

١ وتمام نصه الذي رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه): "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل! فإن لو تفتتح عمل الشيطان".

كامل ثم كفالة حين تضاول القوى ..)، كان هذا التوجيه النبوي الذي كثيرا ما نتجاوزه بحثا عما هو أكثر إيغالا في التعقيد ما يجعل الناتج يأتي مخيبا: "اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السينة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن". (١)

لماذا لا نغير صورة المسلم النمطية التي تقطر دما في المخيلة الجماعية للآخرين وتتناثر حولها الأشلاء في وسائل الإعلام ونقول بأن تلك صورة أصابها التشويه وغير ملامحها وأن نعتة الصحيح هو الذي جاء على لسان من أرسله الله بالإسلام الذي علمنا بأن من مواصفاته الأساسية: "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه". (٢) وأنه مجبول على حب الخير للآخر بل يشترط عليه أن يتمناه له صادقا: "لا يؤمن أحكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". (٣)

من تجليات قصور إستراتيجية التبليغ، إهمال ما يزرع به القرآن من النفاس التي تنتظرها العقول المتفتحة للخير والمتحررة من إسار الوهم، وأخرى يمكن أن نهز بها الأفكار المتجمدة التي تسبب لنا الكثير من المشاكل ...

الشهادات الأربعة:

يحدد القرآن الكريم علاقتنا بهذا النبي الكريم، على أنها يجب أن تكون - في حال استوائها - أداء للشهادة على الأمم بعد أن يشهد لنا أو علينا طبقا لما نكون قد تحملناه وأدينناه من أمانة الإمساك بقوة وأداء ما فيه بأمانة: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، {البقرة، الآية: ١٤٢}.

يؤلم أن هذه الأمة عاجزة اليوم أن تقوم بهمة الشهادة لرسولها وربما جعلوا الصورة الوضاعة مغبرة غائمة لا تتضح قسماتها في أعين الكثيرين، ألا تراهم يقولون عنه، تزكية وتفضيلا، بأنه كان نجما في السماء في حوار مفتعل مع جبريل؟

فلنقارن هذه الفرية بتلك الشهادات الصادقة التي سجلها التاريخ، وفيها من البساطة بقدر ما فيها من صدق العاطفة وسمو النظرة إلى هذا المختر الذي ابتعثه الله ليكون واسطة العقد ونيراس الهداية: أولاها تلك التي جاءت على لسان خديجة، أعرف الناس به، يوم انفتح باب السماء لاستئناف وصول بريد الوحي الرباني إلى الأرض بعد انقطاع النور وتخبط البشر ثم تجرعوا كنوس الجهالة مترعة، وهي التي سجلها المؤرخون يوم عاد الرسول من الغار فزعا فسارعت إلى طمأننته بأنه أهل لكل خير. شهادة أبي سفيان بن حرب، يوم استنطقه هرقل فلم يملك دس كذبة واحدة في تلك الصفحة الناصعة كما يقول، وما أن أنهى سرد شهادته عن رجل كان يخطط للإيقاع به حتى قال الإمبراطور قولته المحفوظة: "لو كنت عنده لغسلت من قدميه".

وثالثة تلك التي أدلى بها جعفر بن أبي طالب، يوم وقف تلك الوقفة التي حسمت الموقف لصالح الإسلام والتي لو زل لسانه فيها لكان لذلك أثر وأي أثر على وجود الإسلام، ليس في الحبشة وحدها وإنما على وجود القاعدة في مكة المكرمة حيث كان صناديدها يراهنون على بعثة عمرو بن العاص إلى النجاشي.

ورابعة الروائع هي شهادة ربيعي بن عامر، والتي أدلى بها أمام رستم قائد الفرس، وهي التي لخص فيها رسالة الإسلام وبواعثها وأهدافها وجنيها موظفا لغة في غاية البساطة بقدر ما كانت متناسقة مع حقائق الإسلام، ألقاها مرتجلا وكأنه يقرأ في كتاب مسطور مبسوط أمامه، وبهذا نجح في إبلاغ الأمانة مسلطا الضوء على لوحات الخير والجمال في هذه الرسالة الخالدة.

١ رواه الترمذي من حديث أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه).

٢ من حديث عبد الله بن عمرو، وممن رواه الإمام أحمد.

٣ من حديث أنس بن مالك، متفق عليه.

من التهم الموجهة إلينا، وقد يكون من كالمها لنا محقين بوجه من الوجوه، أن الجفوة في القول والجلافة في السلوك هو ديدنا وأنا لا نحسن فن "ممارسة الحياة بالذوق الرفيع"، كم يحز في النفس أن يقال هذا لأمة من فروض تعبدها لربها تخير أطايب الكلم "الإحسان في القول" بأمر رباني حاسم لا مجال فيه للتأويل: (وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة)، سورة الحج، الآية: ٤١ .

ثم يجاهد نفسه ويرببها على المعالي حتى يصبح من ديدنه تحويل معسول القول - تأليفا للقلوب النافرة وجذبا للعقول الشاردة - إلى فعال صالحة تمتد أثارها إلى من يتصل بهم من بني البشر وهو يحمل شعار "السلام عليكم"، واضعا كل حركة يؤديها أو نشاطا يمارسها في غلاف "الصلاح": (واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير)، {السبأ، الآية: ١١}.

في الدول التي استغنت اليوم من العالم - شرقا وغربا - شح مستشر وسط جموع الأغنياء وتعجز الدول الكبرى عن سد منافذ تهريب رعوس الأموال إلى واحات الضرائب، وقد فشلت السياسات الترغيبية والتهديدية من احتواء الكارثة، بينما نملك علاجا شافيا في كلمات بسيطة ومعاني عميقة لو أحسنا صياغتها وتغليفها بما يجعلها مستساغة لقدمنا لهؤلاء المذعورين خدمة لن ينسوها لنا مدى الدهور: "فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، .. فإياك وكرانم أموالهم". (١) "أيا أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله". (٢)

تعاني المجتمعات، التي توصف بالمتقدمة، من شرور مستطيرة من أكبر عناوينها تفكك العلائق بين الأجيال حتى إذا تحدثوا عن المجايلة جاء حديثهم تعبيرا عن برم هولاء بأولئك وتعفف أولئك بهؤلاء، وهنا نتقدم بكلام بسيط يتم به تلحيم تلك الفتوق في جسوم مجتمعات مهترنة نفسيا لأنها قد شاخت قبل الأوان لشدة ما فقدت من وزن في الإيمان بقيم صالحة نافعة، وعلى آذان القوم نهمس: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحمنا صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه". (٣)

كم سيكون حجم إلقاء مثل هذا الدرس في أوساط مجتمعات تؤاد فيها الطفولة وتسليخ الشيوخة سلخا كل يوم تشرق شمسها؟ بدلا من تسطير كتاب يقع في مآت الصفحات من أحكام أهل الذمة في الإسلام، لم لا نجرب إصدار كتيب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) والأطفال، ونحكي فيه قصصا من قبيل "أبو عمير والغير"؟ أتخيل أن سيكون ذلك فتحا مبينا مبينا.

وفي شق المنافع التي يجعلها القرآن إحدى المرتكزات، نرى الأثر الذي تركه التمويل الإسلامي في الديار غير الإسلامية اليوم لأنه جالب للنفع العميم الذي يتكالب عليه هذا العالم المفلس الذي يتلفت يمينا وشمالا بحثا عن يخرجه من ورطته، هل كان بالإمكان حدوث هذا الانجذاب لولا تلك الجهود الذكية التي فطنت لما في طرح البدائل الخيرة من نفع وخدمة للبشرية في وقت لم يك فيه أولئك المترفون يظنون أنه في لحظة الكساد المطبق ستحل عليهم، بهذه الفجاءة، لن يكون أمامهم سوى هذا النموذج الذي طالما سخرروا من منبعه "المنهج الإسلامي" وجادلوا في قدرته على إدارة شئون الكون وليس الحياة الدنيا وحدها. ألا يمكن أن نستفيد من هذه التجربة، التي أخذت اليوم توتي أكلها اليانعة، فنطرح على العالم المستعجل في اختراق الآفاق بحثا عن ملجأ آمن، بعد أن أظهروا الفساد في البر والبحر والجو، رؤية لاستعمار الكون الخارجي الذي أفاض كتاب الله في الحديث عنه في تفنن عجيب مدخلا إياه في جملة المسخرات التي وضعها المبدئ البديع. لفتني بقوة، وأنا أكتب هذا المقال - افتتاح القسم الخاص بالفن الإسلامي بمتحف "اللوفر" الباريسي الذي ازدحم بكنوز فنية تحكي تفوق الإنسان المسلم في ميادين العطاء وهو يعبر ألف سنة من الإشعاع أمضى الغرب معظمها في

١ رواه الشيخان من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما).
٢ من حديث ابن عمر الذي ضعفه علماء الحديث لكن له شواهد يتقوى بها.
٣ رواه الترمذي من حديث عبد الله ابن عمرو (رضي الله عنهما).

الخطب الفكري والعلاقات الدموية، وفي هذه المناسبة تناول فرنسوا هولاند الرئيس الفرنسي ما يجري في شمال مالي من أحداث ووصف السلوكيات هناك بأنها بربرية، فيما زعم، لكننا الذي يهمننا هنا أن ندلف إلى بعض هؤلاء عبر باب الولع بالفن الراقي الذي لدينا منه الكثير. (١)

إن المجتمعات، باختلاف مشاربيها وتباين درجات نضجها، تهوى القصة وما يردفها من وسائل استجاشة العواطف وترطيب القلوب، وهو الظمأ الذي ظل البشر يتفنون في طرائق إطفائه بشتى الصور والوسائل حتى إذا قيل بأن الناس شبوا عن الطوق واكب ذلك نمو في ابتكار وسائل التأثير والإلهاء تلك، وفي العصر الذي نمور فيه اليوم وسط ضجيج الأفكار وققععة الصراعات المذهبية تفتقت العقول عن حشد من الطرائق والوسائل تراوحت ما بين ناطقة ورأسمة وموحية بالحياة. هنا نسأل ما نصيبنا، نحن حملة آخر حلقة من رسالات السماء إلى الأرض، في تصريف وحذق هذه الأدوات في الوصول إلى العقول مرورا بالعواطف زرعا وبعمق حقائق الدين الخاتم؟

يبدو من استقراء الطرائق التي يصر البعض على اتباعها لعرض حقائق الإسلام وتصوراتها، أن نهجم يقوم على "جمال القوة" بدلا من التركيز على "قوة الجمال"، أو ما سماه حكيم آخر بـ: "تغليب قوة الحنجرة على قوة الحجاة"، في الحاليتين نكون قد جانبنا الصواب في اقتفاء النهج السديد الذي ينعتة كتاب الله بهذه الطريقة الدقيقة التي تشي بقوة الأداء: (ادع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)، {النحل، الآية: ١٢٥}.

كم ارتحت للطريقة الحضارية الرائعة التي اتبعها المسلمون في بريطانيا، في أتون الزوبعة التي أثارها عرض فيلم "المسلمون..."، حين خرجوا إلى الشوارع وهم يحملون زهورا تحمل باقات تربية مستتلة من تعاليم معلم البشرية تدعو إلى مكارم الأخلاق ما ذكرني بمنهجية البدائل الحسان التي طالما استهوت الشيخ الغزالي الذي كان كثير الترنم بهذا البيت الذي يقتر حكمة يجب استلهاها، ويتأكد هذا المطلب العالي متى تعلق الأمر بمن نصبوا أنفسهم لإيصال حقائق الإسلام إلى العالمين: لا تقل عن شيء ذا ناقص جئ بأوفى وقل ذا أكمل ألا ما أرشده من طريقة وأشدّه أسرا لمن يبحثون عن مكامن الخير لاحتيازه وعن منابع الخير ليغرفوا منه غرفات ثم يسبحون عبر بقاع الأرض وهو يحملون مشعل النور لكشف الظلام الذي تتخبط فيه الأمم.

واختتاماً:

"... كان أحد أساطين الدعوة (الشيخ عبد الحميد كشك) في لحظات بزوغ فجر الصحوة وتجدد شباب الدعوة، يردد تعبيرا جميلا: "الإسلام لا يحتاج منا إلى التجميل والترزين وإنما إلى مجرد حسن عرض". والدرس المستفاد هنا هو: لا يكفي أن نملك الحق، وإنما يجب أن نضيف إلى ذلك القدرة على تجليته وحسن أدائه من خلال التمثيل الصحيح وجمال العرض دعوة وإفتاء، إرشادا وتفقيها، توجيهها وقضاء" (٢)، كلما نتوق إليه هو أن نتمرن على فنون تسويق الإسلام في معارض تزداد اكتظاظا حيث المنافسة على أشده.

١ انظر مقالنا بعنوان: "الإسلام رسول الله: بين الشعار والمفهوم والأداء"، مجلة العالمية الكويتية.
٢ من ورقة قدمناها في ندوة "الدعاة والعلماء ومسئوليتهم في المجتمع" نظمتها رابطة العالم الإسلامي في السنغال بتاريخ: ١٠/١٤٣٢/٥ هـ وكانت بعنوان: "ملاحظات نقدية وقراءة في المفاهيم والأداء".